العدد(1487) السنة السادسة -الثلاثاء (21) نيسان 2009 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الى يوم مقابلته لشمس الدين التبريزي، كان جلال الدين الرومي رجل دين وتصوف لا يختلف عن الآلاف من أمثاله الحاضرين وقتئذ في كل مكان من العالم الإسلامي، كان معروفاً بالفضل والتقوى يحبه تلاميذه لما يتميز به من المعية وذكاء ومعرفة، إضافة الى جمال خلق وحلاوة لسان وسماحة طبع، كل ذلك كان سبباً لالتفافهم حوله وحرصهم على مرضاته، كان يكسب عيشه عن طريق التدريس والوعظ في الجامع أيضاً، وقد وهب التوفيق في كل ذلك حتى ذلك اليوم لم تكن ينابيع مواهبه قد تفجرت بعد، فما زال في حاجة الى الحافز المحرك أي الى (الكبريت الذي يبعث النار في العود الغض) وتلك كانت مهمة شمس الدين التبريزي، فمن هو هذا الإنسان؟

ولد محمد شمس الدين أبن ملك داد علي التركماني الأصل ونشأ في تبريز عاصمة أذربيجان ولان معاصريه لم يشغلوا أنفسهم بتحديد تاريخ مولده فان الأستاذ عبد الباقي غول بنارلي يحدده بسنة ٥٨١هـ.

علاقات جلال الدين الرومي الخاصة

«شخصية شمس الدين التبريزي»

احسان الملائكة

منذ عهد الطفولة بدت على (شمس) إمارات ذكاء خارق وأحوال مثيرة للعجب جعلت والده في قلق شديد عليه، فكان يظهر له الحنان والشفقة وكأنما أدرك ما ينتظره من ألام وأهوال، ويعترف شمس الدين في كتابه (المقالات) بانه حين رأى قلق والده حاول التخفيف عنه بان روى له حكاية الدجاجة التي احتضنت عدداً من البيض، فلما فقست لم تلحظ الأم أي فرق بين الأفراخ، وفي يوم من أيام الربيع اصطحبت صغارها الى الجدول لتعلمهم السباحة لكن أحد الفراخ سارع من دون أذن الدجاجة ورمى بنفسه في الماء، فشرعت الدجاجة المذعورة بالاستغاثة واقتربت من الماء فاذا بالفرخ الصغير يسبح بمهارة غير معروفة في الدجاج، ذلك انه لم يكن من صنف الدجاج أصلاً.

كان من البط (وذلك هو حالي أنا بينكم يا أبي: أنا مثلكم ظاهراً، لكني في الحقيقة مباين ومختلف عنكم)، هكذا أتضح لشمس الدين ان مكانه ليس بجانب أبيه ففارقه حالما بلغ سن الرشد والتحق بخدمة صوفي يدعى أبو بكر سلة باف، وهذا اللقب يعني حائك السلال ومن (سلة باف) هذا تعلم أصول الصنعة ليتكسب بها، كما أخذ عنه مبادئ التصوف، ثم جاء يوم أدرك فيه ان الصوفي المتواضع المذكورة، لا يملك ما يعلمه إياه ففارقه مثلما فارق أباه من قبل، ومضى يطوف أرجاء العالم الإسلامي وحيداً يقطع البلاد بلا رفيق ولا صاحب، اذ لم يكن يطيق صحبة أي إنسان.

لا يعرف شمس الدين تاريخاً محدداً للوقت الذي نشأ لديه هذا الشعور بالاغتراب، فهل بدأ في الطفولة البعيدة أم في الصبا الباكر كذلك لم يستطع ان يحلل أسباب هذه المشاعر المتناقضة التي تملأ نفسه الشيء الوحيد الذي كان يحس به هو شعور مبهم بالحاجة الى التعرف بشخص ما، صديق مقرب يعرفه جيداً ويستطيع ان ينسجم معه بسهولة ويسر، يختلف عن جميع البشر الذين عرفهم في حياته، كان شمس قد فرأ كثيراً عن الناس لكنه لم يكن يرى العظمة في كبار الفاتحين وعظام القواد ولادهاة الساسة، فهؤلاء في ظنه لم يرتقوا سلم المجد الا على أكوام من جثث البشر، فلولا مقتل الملايين ما كان محمود الغزنوي ولا جنكيز خان ولا حتى الاسكندر المقدوني، كان شمس دائم البحث عن العرفان كثير الدرس للفلسفة والكلام والفقه والشرع ومع ذلك فان دياجير الشر التي رانت على بلاد الإسلام في عصره (القرن السابع للهجرة) جعلته يجحد العلم وينكر فضيلة العقل لان جميع طغاة ذلك العصر كانوا يفذلكون مظالمهم ويدافعون عنها باسم العقل.

كانت دماء الابرياء تسفح انهاراً تحت ستار الدين الذي يؤكد جميع الفلاسفة انه لا يتناقض مع العقل لان الله هو العقل الكوني، فليس عقل الإنسان بقادر اذن على الوصول الى الحقيقة ذلك هو الاستنتاج الذي توصل اليه شمس الدين الذي كان همه وشغله الشاغل ان يبلغ الحق ويدركه ويفهمه، وكان شمس يلتمس الكمال (الذي هو تجلي الحق) ولاشك انه بحث عن الكمال في نفسه هو على طريقة المتصوفة المعاصرين له والذين سبقوه بعد ان يئس من البشر، ومع ذلك فقد عرف انه في حاجة الى العثور على الإنسان الكامل الآخر، الرفيق الذي سيصاحبه في الطريق الطويل القاسي، طريق الرياضة الروحية التي تفرض على (العارف).

ومن الواضح ان شمس الدين كان قد اطلع على نظرية افلاطون التي نسبها هذا الى سقراط كعادته، النظرية التي ترى ان الإنسان يبحث ابداً عن نصفه الآخر ولا يرتاح حتى يجده وان كل فرد من البشر يشبه نصف تفاحة ولكي يكتمل الفرد فلابد له من الاتحاد بنصفه الآخر، كما ان التفاحة لا تكتمل الا باجتماع نصفيها وبهذا المفهوم الافلاطوني مضى (شمس) يبحث عن نصفه الثاني وهو واثق من انه سيجده في مكان ما من الأرض الواسعة.

المهم هنا ان نعرف با شمس الدين لم يشغل نفسه بعالم الصور كما يفعل الشاعر حين يتلهف للقاء الحسناء الحبيبة، وانما كان همه العثور على النفس الجميلة التي تشتاق نفسه الاتحاد بها، فهل سيجد ضالته في عالم النساء؟ قطعاً لا.. ذلك ان المرأة في القرون الوسطى، كانت محجوزة في خبايا سراديب الحريم وقد فقدت إنسانيتها وتحولت الى كائن لم تخلقه الحياة وانما شوهته مجتمعات الطمع والبلادة كائن عجيب يقع ما بين الإنسان والحيوان لا هو بالإنسان ولا هو بالحيوان مخلوق مشوه العقل مترهل العضلات يستخدم لتحقيق غايات ليس منها الرفقة والصداقة والمصاحبة على أية حال كان على شمس الدين، اذن ان يلتمس خدينه بين ابناء جنسه خصوصاً وان افلاطون يؤكد ان الصداقة الروحية لا يمكن ان تتم الا بين الرجال في عالم لا تتوفر فيه أسباب المعرفة والثقافة الا لهم وحدهم من دون النساء.

وشرع شمس يجوب الآفاق ولم يكن يستقر في أي موضع، كانت الخانات والترل مقراته المؤقتة فما يكاد يشعر بوجود إنسان على أقل معرفة به حتى يسرع بمغادرة الترل.. لماذا؟

يقول أحمد افلاكي خادم جلال الدين الرومي ان شمساً كان يخشى الأرصاد والظاهر انه كان مطارداً ممن؟ ولماذا؟ هل كان رجل سياسة؟ هل كان مطلوباً لثأر؟ هل كان على صلة بالاسماعيلية؟ لقد كان اجداد شمس من الاسماعيلية بالفعل، لكن والده تبرا من هذا المذهب وأحرق كتبهم التي يمتلكها، فهل كان فراقه لوالده ناشئاً عن هذا السبب؟ الذي نعرفه ان شمس الدين حين وصل الى قونيا سنة ٦٤١هـ لم يكن على المذهب الاسماعيلي لسبب بسيط واحد وهو انه كان متصوفاً والاسماعيلية ضد المتصوفة، برغم ان المتصوفة منذ القرن السادس للهجرة اعتنقوا كثيراً من أفكار الاسماعيلية، لكن الفرق الجوهري بين الطائفتين ان الصوفية منسحبون من الدنيا عاكفون على الرياضة الروحية من زهد وخلوة وصيام وتعذيب للجسد، في حين تعد الاسماعيلية من أشد الطوائف حرصاً على متاع الحياة لاسيما في القرن السادس والسابع الهجريين حين صارت قلعة الموت الاسماعيلية تصدر الإرهابيين لاغتيال كبار المتنفذين على طول الساحة الإسلامية وعرضها، فكانوا مصدر رعب للجميع حتى للجنود الصليبيين القادمين من أوروبا، كان الاسماعيليون يصرحون بانهم عازمون على إقامة دولة العدل والعقل التي حقق الفاطميون المرحلة الأولى منها، ثم اختلفوا مع الاسماعيلية فوقع الانشقاق بين الجماعتين فكل هذه الاهداف الدنيوية مباينة تماماً لاهداف المتصوفة الذين يدعون الى إماتة الرغبات الدنيوية من أجل الوصول الى مقام الاتحاد بالمطلق.

كانت الشام من أحب المواضع الى شمس الدين فهو يزرها دائماً ويقيم بها طويلاً وهو يعرف مدنها وأهلها معرفة المواطن المقيم، وليس الضيف المترحل، والشام في ذلك الحين كانت تفتح ذراعيها للصوفية لكن الشام أيضاً كانت في الوقت ذاته مقراً لكثير من فدائيي الاسماعيلية، وربما كان في هذا التفسير المعقول لما يؤكده معارف شمس في انه كان شديد الحرص على التخفي اينما حل في بلاد الشام، فكان لا يترل الا في خان لا يعرفه فيه جنس مخلوق وكان يشتري أقفالاً لأبواب الغرف التي يستأجرها ويرفض استقبال أي زائر في تلك الغرف ويتجنب تكوين الصداقات او العلاقات مع الجيرة.

وفي الوقت ذاته كان شمس أثناء إقامته في الشام يظهر للناس بانه صوفي مستغرق أبداً في الرياضات وفي مقدمتها الصوم والخلوة وبذلك يبرر وحدته ويقطع فضول الطفيليين.

ويروي افلاكي ان شمس الدين توجه يوماً الى دكان في حلب ليبتاع شيئاً فعرفه البائع وأراد ان يبيعه أفضل ما عنده لكنه حين استدار نحو شمس ليسلمه السلعة لم يجد أحداً كان قد انتهز فرصة انشغال البائع وهرب لانه رأى البائع قد عرفه.

وفي مناسبة أخرى كان شمس يقوم بتعليم القرآن لأطفال إحدى قرى ارضروم فلما أدرك شمس أنهم يريدون ان يقدموه لابائهم كي يكرموه أسرع يغادر ارضروم كلها فلم يعثر له فيها على اثر من بعد.

أثناء ذلك كان شمس الدين يمضي قدماً في التماس المراتب العليا في عالم التصوف، وكان شعوره بضرورة العثور على الشيخ الحقيقي (المريد المراد) على حد تعبير الصوفية، هذا الشعور ظل يشتد بحسب توضيح ابي الطيب المتنبي (ولكن حبا خامر القلب في الصبا يزيد على مر الزمان ويشتد) وكان العمر يجري به وها هو يقارب الستين، والفراغ يملأ عليه العالم، اذ صح التعبير: وهو في حركة دائبة لا يعرف موطنا ولا يسكن الى ارض حتى لقبوه بشمس الطيار، وكان اللقب في موضعه تماما، فقد ظل الغريب الصوفي في سياحة ابدية حتى النهاية . في بغداد زار شمس الدين صوفيا معروفا كان يقيم بها وقتئذ اسمه اوحد الدين الكرماني، فسأله شمس عما يفعل في المدينة، قال أوحد الدين: أنا أراقب القمر في ماء الطشت (يقصد انه كان يتأمل الجمال الوجوه بحثا عن الجمال المطلق).

قال شمس يجيبه: ان لم يكن في جوف رقبتك ورم فلا تخفض راسك بل ارفعه الى الأعلى كي ترى قمر السماء اما الحسن فالتمسه داخل نفسك.

عندما امسك اوحد الدين ذراع شمس الدين وقال: أرجوك ان تسمح لي بمرافقتك.

قال شمس: انك لن تطيق صحبتنا.

ولما طال الحاح اوحد الدين قال شمس: اقبل بشرط واحد،ان نتوسط انت وانا، سوق بغداد ونحتسي الخمرة أمام الملا.

قال اوحد الدين مستنكرا: أعوذ بالله حاشا ان افعل هذا عرض آخر.. انا الذي سأشرب وعليك انت ان تجالسني، وتتحدث معي على تلك الحال.

ما رأيك؟ هذا أيضاً ما لن افعله أبداص.

مادمت كذلك فابعد عن طريق الرجال انت لا تصلح لي رفيقا، واعلم انني لا التمس مريدا ولا شيخا وما أبحث عنه هو العارف الولي،المرشد الهادي، لقد هجرت الأوطان وتغربت في البلدان وانا اطلبه، لكني لا اجد في راحة يدي غير الهواء.

من هو الإنسان الكامل في رايك؟

هو الذي اذا سمع انتقادات الناس له لم يبد انزعاجا ولم يتميز غضبا.

ما اسهل ان نجد مثل هذا الانسان.

هل تظن ذلك؟ فاسمع اذن الحكاية التالية: في مجلس من مجالس الصوفية راح احدهم يطيل حديثه عن الاسماك فارتاب احد الجلوس بمدى معرفته وقال متسائلا (أتعرف السمك حقا؟)

قال الرجل (كيف لا اعرفه وقد قضيت كل عمري في اسفار البحر)

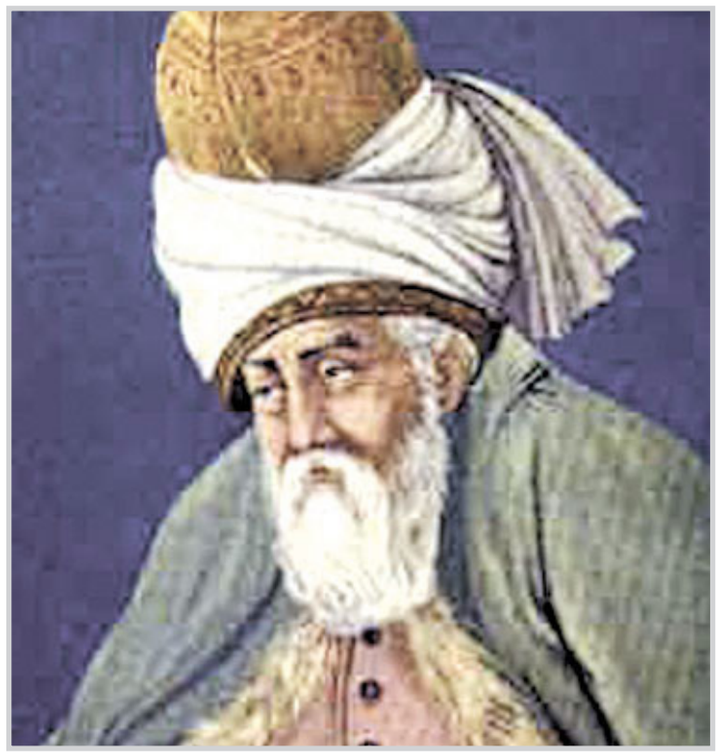

قال السائل (فاشرح لنا امره وفصل لنا وصفه) قال الرجل (ما اسهل هذا.. السمك حيوان شبيه بالجمل وله قرنان) قال الرجل (صه ايها الأحمق انت لا تفرق بين الثور والجمل فلا عجب ان تجهل صفة السمك) وهكذا هم الناس في العادة، انهم بلا تمييز وبلا عقل وبناء على ذلك كله قر الرأي مني ان لا اطلب الا الإنسان الكامل. قال (شمس) وهو ينهي حديثه وفكرت بيني وبين نفسي: لابد ان رفيقي موجود في مكان ما على وجه هذه الأرض، فلا يعقل ان العالم المتحشد بهذا العدد الهائل من البشر،يخلو من إنسان واحد فقط، وهو الذي اتمنى لقاءه).

في تلك الاثناء قارب شمس الدين سن الستين ومأت الشعرات البيض فوديه ولحيته، كان يرتدي خرقة اللباد ويحمل بيده علما شأنه شأن دراويش ذلك العهد.

اما رزقه فكان ياتي من عرق الجبين، فقد جرب العمل في مختلف الحرف والمهن، اشتغل في الحدادة واحترف بيع سلال الخوص والخيزران، وحمل مشحذ سكاكين، كان يحصل عن طريقه على بضعة قروش في اليوم، هذا إضافة الى قيامه في احيان كثيرة بتعليم الصبيان القراءة والكتابة لقاء أجور زهيدة.

لم يستنكف من اي عمل مادام يحفظ له ماء وجهه كي لا يضطر الى الاتكال على الغير ولهذا عود نفسه على الجوع والصبر وتحمل الفاقة والحرمان بتحد وكبرياء.. من مناقب شمس الدين التبريزي ينقل احمد افلاكي (خادم جلال الدين الرومي) الحكاية التالية: في طريقه الى قونيا مر شمس ببلدة (اق سراي) واذ لم يجد الترل المناسب، قراره على المبيت في المسجد بعد صلاة العشاء توجه المؤذن الى بوابة المسجد ليغلقها، فرأى شمس الدين الجالس على الأرض فصاح به: من انت؟ وماذا تفعل هنا بعد خروج المصلين؟

انا رجل غريب ايها الرجل الصالح، ولست اجد مكانا لقضاء الليلة، فلتسمح لي بالبقاء هنا حتى الصباح .

احتد المؤذن وشرع يوبخ شمس الدين ويهينه الى ان فقد هذا صبره، فنهض ومضى نحو البابو هو يتمتم: الله قادر على ان يكتم هذا الصوت في الحال احس المؤذن بلسان ينتفخ ثم بدأ يلتصق ببلعومه، أخيراً وقع المسكين على الارض وهو يحتضر، فهرع اليه إمام المسجد متعجبا: ماذا يجري هنا؟ مابك ايها الشيخ؟

اشر المؤذن الى شمس الدين الذي كان يسير مبتعدا قال بصعوبة بالغة: الحق بذلك الشيخ واطلب منه المغفرة. فهو إمام الجامع الموضوع وجرى خلف شمس الدين حتى بلغ موضعه، وقال له: أرجوك يا سيدي ان تعفو عن المؤذن التعس، فهو لم يكن على علم بمقامكم الجليل. اعذره قبل ان يموت.

قال شمس: اما الان فقد قضي الامر،والحكم له وحده من بعد، فلقد استجيب الدعاء .كل ما أستطيعه هو الدعاء له بان يموت مؤمنا لا كافرا.

وحين عاد الرجل الى المؤذن قد وجده فارق الحياة : لقد عد مريدو شمس الدين التبريزي هذه الواقعة، من كراماته الأكيدة والحال ان العلم الحديث اكتشف إمكانية وقوع مثل هذه الامور استنادا الى ظاهرة الإيحاء التي تصل الى حالة التنويم المغناطيسي ومن المعلوم الان ان لبعض الناس قدرات خاصة على التأثير في الآخرين، وقد تصل الى ما يشبه هذا الذي وقع للمؤذن المسكين، كما ان بعض الناس لديهم الاستعداد الشديد للوقوع تحت الإيحاء اي الاستجابة لهم، وذلك شأن الوسيط مع المنوم المغناطيسي.

الـــذات مـــع الآخـــر

الى حيث تبدو الخطوة التي نصوبها نحو الشيء طريقاً الى معرفة الجانب الاعمق في وجودنا الجانب الذي لا يرى، وغير معروف..

رياض النعماني

والذي يدخر ويحتفظ بصور ذاتنا الأولى هذه الخطوة التي هي اختراق الظاهر نحو الباطن تعيد الينا سيرورة حياتنا التي نسيناها فضيعنا بذلك جمالاً هائلاً ومعارف كبيرة، وتجارب لا تحصى تتبدى هذه الخطوة في الوقوف الفذ أمام عظمة البسيط والعادي المبثوث في شرفة تطل على نهر الواقع أو زهرة تتسلق جداراً.. أو حجارة تشعل البرق في غابات الوقت وتعيد له سماءه المتوترة في قوس الرعد هنا يكون للغة فاعلية تجدد الحياة وتغير علاقات الأشياء بالأشياء.. وهي التي تمنح هذه الخطوة معناها وتأخذها بقوة الفكر والحلم والرغبة الى حيث يكون باستطاعتها إعادة صياغة كل شيء في حركة كونية (تمزج الروح بالجسد.. الإنسان والطبيعة (نبات.. مياه.. حيوان.. الوعي الأعلى والوعي الأدنى) في سياق يحيل الاجتماعي (الفرد) ويحوله الى كائن ميتافيزيقي أشمل، هكذا نجد أنفسنا إذا وجدنا الآخر في مساحة نكتشف فيها ونعثر ليس على الوعي أو اللاوعي بل والوعي الأعلى وهو المحيط الذي تدور فيه المعارف الكبرى وحركة الكليات والأسرار وصياغات وأنساق أهداف الكون (هدفية الكون) التي تعطي لكل فعل اتجاهه وسيرورته الخاصة به هنا وفي هذا المسعى الجدلي تتكثف وتنضج أولى معارف الإنسان المتمثلة في القصيدة.. وهي إحدى أهم الخلاصات الكبرى التي توصل مبدعها- وتوصل القارئ معها- الى عبور الأشواط والمسافات والتعرف الى حكمة الصمت ومن ثم مواجهة العدم وسماع أصواته الملونة.. ويكون بإمكان المبدع في هذا المستوى من الحضور الطيران في لانهائية مطلقة في هذه النقطة تبدأ البدايات من جديد وتولد الأسرار ويصبح كل شيء في مركز دائرته الذي هو صورة أخرى من صور مركز الدائرة الأولى والنهائية للجود كيف تبدأ هذه الخطوة؟ وفي أي سياق؟ وضمن أي مناخ يمكن أن ننعشها وننعش مثلها كي يكون الكائن لائقا بكينونته؟ والآن.. وبعد ذلك نحن بحاجة الى طرح سؤال الحرية الوجودية الشاملة كي نتعرف الى ذواتنا ونكتشف المطلق الكامن فيها والذي يتجلى في النقطة التي تلتقي فيها الذات مع الآخر لتعثر على هويتها المؤثرة في التاريخ.

محطات ثقافية

روما

جائزة كاستيو ديد وينو الايطالية.. للشعر العراقي

فاز الشاعر الشاب ياس السعيدي بجائزة (كاستيو ديد وينو) وهي ميدالية يمنحها الرئيس الايطالي، وهي أعلى جائزة في ايطاليا يمنحها الرئيس الايطالي لأحسن قصيدة للشعر التي تقام في كل عام، ويشارك بها شعراء من جميع انحاء العالم، وقد فاز الشاعر العراقي الشاب ياس السعيدي بها.

والقصيدة تحمل عنوان (زخرفة في ذاكرة المتسكع العجوز) وهي من الرئيس الايطالي، وقد تحجب الجائزة عندما لم تكن هناك قصيدة بالمستوى المطلوب.

وبلغ عدد المشاركين (١٦٠٠) شاعر من جميع انحاء العالم، القصائد التي فازت ست قصائد، وفاز بقصيدة التنويه ثلاثون شاعراً كان من بينهم الشاعر العراقي حسام السراي، والقصد من قصيدة التنوية على انها من افضل النصوص المشاركة التي تستحق التنوية عنها وتسلم جوائز للذين تفوز قصائدهم بذلك.

أدنبرة

مهرجان اسكتلندا العالمي للشعر في دورته الثانية عشرة ٢٠٠٩

Scotland>s International Poetry Festival

على مدى خمسة أيام (١٨- ٢٢/ آذار) وفي كنف مدينة سانت اندروز St Andrews شمال أدنبرة أقيم مهرجان اسكتلندا العالمي للشعر في دورته الثانية عشرة ٢٠٠٩، وهو واحد من أهم المهرجانات الشعرية في المملكة المتحدة، يعقد سنوياً في شهر آذار، ويشارك فيه شعراء من انكلترا وكندا والولايات المتحدة وأوروبا. وتتنوع فعالياته بين القراءات الشعرية والحلقات الدراسية والموسيقى والأفلام والرقص ومعارض الكتب والفنون البصرية.

وقد قرأ الشاعر العراقي عدنان الصائغ في جلسة القراءات المفتوحة قصيدة له بعنوان (في حديقة الجندي المجهول)، قدمه وقرأ ترجمتها إلى اللغة الانكليزية الشاعر الاسكتلندي جيم كاروثرز.

موقع المهرجان:
http://www.stanzapoetry.org/index.php

استراليا

أبوّة جديد أديب كمال الدين الشعري

ضمن منشورات دار سيفيو الأسترالية صدرت حديثا باللغة الإنكليزية مجموعة جديدة للشاعر أديب كمال الدين بعنوان: (أبوّة) احتوت المجموعة على ثلاثين قصيدة مترجمة للشاعر، أمثال: كلمات، وحشة الرأس، الرجل، محاولة في العزلة، ملل، محاولة في الطيران، سرقة، أرق، ثنائية، ماضي المعنى، قبور المعنى، النار والسندباد، محاولة في الرثاء وقد قدّمت لها الشاعرة الأسترالية جود أكولينا. سبق لأديب كمال الدين أن شارك في أكثر من قراءة شعرية في المدن الأسترالية، وتمّ تضييفه في جمعية الشعر في مدينة أديلايد عاصمة ولاية أستراليا الجنوبية عام ٢٠٠٤ وعام ٢٠٠٦، ونُشرتْ قصائده في أكثر من مجلة أسترالية مهمة منَ أمثال: مينجن وساوثلي، وفي عدة أنطولوجيات، مثل: بلد آخر والثقافة، مثلما اختيرتْ قصيدته: أرق كواحدة من أفضل القصائد الأسترالية لعام ٢٠٠٧ ونُشرتْ في أنطولوجيا خاصة أعدّها الشاعر الأسترالي والروائي المعروف بيتر روز.

الموصل

أصبوحة شعرية لكرم الاعرجي في اتحاد أدباء وكتاب نينوى

ضيف اتحاد أدباء وكتاب نينوى، يوم السبت الماضي، الشاعر كرم الاعرجي، في أصبوحة شعرية جديدة، قرأ فيها مجموعة من القصائد التي تنوعت بين التفعيلة وقصيدة النثر، وقال د.احمد جار الله الذي قدم الاعرجي: (إنه شاعر غير ساكن أو جامد إذا صح التعبير، فهو يتنقل برشاقة متناهية بين مختلف أشكال القصيدة، وقد لاحظنا خلال السنوات الماضية أن لديه نزعة نحو قصيدة النثر المقطعية، وأنه بدأ بالتركيز على المفارقة والسخرية)، ويضيف جار الله: أعتقد بان (فوضى صور) آخر مجموعة لكرم الاعرجي، والتي قرأ اليوم عددا من قصائدها، تمثل انعطافة في تجربته الشعرية، لأنه اقترب بها من الواقع، خصوصاً أنه عرف في السابق بنزعته الصوفية او استثماره للرموز الصوفية في شعره وتوظيفها، فانتقل في فوضى صور الى الواقع اليومي الذي يعيشه، وبات وكأنه يمسك بكاميرا ويلتقط صورا للمجتمع العراقي من مختلف الزوايا، ثم يقوم بإعادة إنتاجها بشكل مدهش.

كل ثلاثاء..

أوهام التحديث

ياسين النصير

(١)

النغمة السائدة هذه الأيام هي الحديث عن تحديث المجتمع، ولن تكون هذه النغمة عالية لو لم تكن ثروات البلاد كبيرة، يتحدث عن الحداثة كل من: السياسي، الوزير، المستشار، المثقف، الموسيقي، المغني، صاحب المحل التجاري، صاحب المطعم، صاحب الفندق، مؤسس المدرسة الخاصة...الخ، كما يتحدث عنها الرجل، و تتحدث عنها المرأة، ويتحدث عنها سائق سيارة الأجرة باللهجة نفسها التي يتحدث بها طالب الفنون الجميلة وأستاذ الجامعة، وتتحدث بها صاحبة صالون للحلاقة، كما يتحدث بها صحفي،. هذا ما يصرح به رجل الشارع أيضا، ويقوله مختص بالتنمية والتطوير،حتى تبدو النغمة أعلى ضجيجا من سيارات شوارع بغداد.. وإذا كثر الحديث عن الحداثة والتحديث، قلّ الفعل فيها، فنحن أمة صوتية نقضي حاجاتنا بالحديث عنها.

ولكن كيف نحدِّث مجتمعنا؟ هذا هو السؤال الذي يدور في عقول كل الشرائح الاجتماعية المشغولة بها، فالحداثة مفردة علا صوتها في السنوات الأخيرة، وربما، وبعد أن أدخل المحتل دبابته لشوارع بغداد ارتبط التحديث بالتغيير، فالحداثة لا تأتي دائما على قدمي مزارع أو أستاذ جامعة، فقد تأتي مع المدفع والدبابة والبسطال والتقنية،وعلينا أن ندرك أن مثل هذه الحداثة ليست دائما في صالح ابن البلد.. لو بقينا على سياق سياستنا التنموية السابقة لن يحدث أي تحديث، ولن تتنامى أية مؤسسة، فما يحتاجه عامة الشعب هو غير ما يحتاجه السياسي.. ولك أن تنظر إلى مؤسسات الدولة، فتجد فيها التقنية الأمنية الجديدة، بينما لا مستشفى قد بني منذ ست سنوات.. بعض الأجوبة الجاهزة التي نستمع إليها في اللقاءات مع المسؤولين، لا تطمئن كثيرا لأنها مختصة بالإجابة عن أسئلة عامة وليس عن أسئلة يقولها مختص، إن لم نقل أن المسؤول الفلاني هو الذي يستدعي الصحفي أو مقدم البرنامج الفلاني، كي يضع له الأسئلة ويتكفل هو بالإجابة عنها.. فثمة جهاز إعلامي جاهز في كل مؤسسة لصناعة الأكاذيب.. أسئلة الحداثة والإجابة عنها من اختصاص علماء من مختلف الاختصاصات، وقد وضعوا خطة مبرمجة لأن تسيّر مفرداتها بخطوات محسوبة، كما وضعوا لها برامج لتطوير كوادر متخصصة بحلقات التنمية والتحديث.. ومثل هذه الأسئلة التي يضعها المختصون، لا تصلح لها إجابات متعجلة يفبركها المسؤول الإعلامي ويصدّرها كمنشور تخديري للناس، بل هي برمجيات لا تقبل الخطأ إلا في هامش صغير.. نحن نعيش في أوهام خطاب التحديث، خاصة بعد أن أصبحت ميزانية الدولة العراقية ٦٠-٨٠ مليار دولار،لأن التحديث أرتبط في عرف السياسيين بحجم الميزانية فقط، وليس بحجم ونوعية المشاريع الحديثة التي تشمل البنى التحتية وليست بتنمية الكوادر الوسطية المختصة. في حين أن دولا أقل منا ميزانية ونفوسا وكفاءة وتجربة، تقدمتنا بعقود ولا نراها تتحدث عن الحداثة أو التحديث بصوت عال، مثل ما يتحدث به سياسيونا.. وخذ لبنان وعُمان ودولة الإمارات العربية أمثلة عامة على ذلك.

ولدينا مئات الأمثلة على الكذب الإعلامي الذي رافق صرف ميزانية الدولة للخدمات طوال ست سنوات، ومنها الكهرباء والماء والنقل والزراعة والثقافة والخدمات البلدية والنفط والمصافي والبنوك والتقاعد وغيرها بما لا يعد ولا يحصى من الأكاذيب الإعلامية المفبركة.. في حين أن الأجوبة الصحيحة لا يطلقها وزير أو مدير عام وحده، بل تطلقها مؤسسة مختصة بثقافة المتابعة ومعرفة تنظيم الخطط، ومشرفة على الترابط بين المؤسسات كما هو معمول به في دول العالم المتقدمة،لأن تصريح هذه المؤسسة لا يخص وزارة ولا مديرية معينة، بل يخص الحلقة التنموية التي وصلت إلى مراحل متقدمة وقد تم تنفيذها من قبل مؤسسات ووزارات عديدة اشتركت جميعها - كل حسب اختصاصه- في جزء من تلك الخطة.. ومن هنا نحن بحاجة إلى مؤسسة متابعة شأنها شأن مؤسسة النزاهة والقضاء، لا تتبع جهة، بقدر ما تكون مسؤولة أمام مجلس الوزراء أو النواب في متابعة خطط التطوير والتنمية، ما عدا ذلك فنحن نعيش في حلقات أوهام التحديث التي لا تقتصر هذه الأوهام على الكذب الإعلامي فقط، بل وعلى المادة التي تنفذ بها التنمية، وعلى الصياغة الثقافية التي تربط بين أجزاء حلقات التطوير وحاجة المجتمع.

> تعبر فكرة أوهام التحديث عندنا عن قصور ايديولوجي فاضح، فالكثير من السياسيين يعتقدون أنهم بتسلمهم مهمات وزارية قادرون على إحداث حركة تطوير في حين أن مهمته تنحصر في تهيئة الكوادر العملية للتنفيذ، وفي الوقت نفسه عليه أن يكون مثقافا بما يكفي لفهم عملية التحديث من أنها لا تتم بحجم الأموال فقط،، بل بالقدرات المتاحة لتنفيذها، والكثير يفشلون في عدم فهم التطوير لأنهم لا يعيرون البعد الفلسفي للتحديث أي معيار عام تقدمي.

(٢)

تقترب فكرة أوهام التحديث من شخص مصاب بالسرطان،ويدعي،نتيجة فحوصات طبية مطمئنة، أنه سيشفى منه، لكن المرض الخبيث لا يغادر الجسد إلا بعاملين اثنين:قوة الإرادة وتوفر العلاج.. ولذلك لا يمكن شفاؤنا منه مادامت المحاصصة قائمة بأثواب جديدة وما دامت موارد الدولة تبذر على المحسوبيات، أما إذا كان علاجنا هو الاطمئنان، سنبقى إعلاميا ندعي بأننا قادرون على بناء مجتمع حديث.

تعبر فكرة أوهام التحديث عندنا عن قصور ايديولوجي فاضح، فالكثير من السياسيين يعتقدون أنهم بتسلمهم مهمات وزارية قادرون على إحداث حركة تطوير في حين أن مهمته تنحصر في تهيئة الكوادر العملية للتنفيذ، وفي الوقت نفسه عليه أن يكون مثقافا بما يكفي لفهم عملية التحديث من أنها لا تتم بحجم الأموال فقط،، بل بالقدرات المتاحة لتنفيذها، والكثير يفشلون في عدم فهم التطوير لأنهم لا يعيرون البعد الفلسفي للتحديث أي معيار عام تقدمي.

ونتيجة أوهام التحديث أن يستمع المسؤول إلى الأناشيد الحماسية والهتافات التي ترافق زيارته وتصريحاته، وقد أشبعنا لغواً بمثل هذه المناسبات من قبل، حتى صار الوقت المخصص لها أكثرمن وقت الإنجازات نفسها، فالنغمة التطريبية التي ترافق مشاريع التنمية هي أداة تعطيل، كما تعطلها العطل الكثيرة بمناسبات دينية مفتعلة، وبأعياد وهمية مرتجلة، وبادعاءات كاذبة عن الطرقات والحركة والانسياب..مثل هذه الأوهام تقال باسم تحديث المجتمع، وقد يعدها البعض جزءاً من خصوصية الجهات المهيمنة، في حين أنها مخدرات كاذبة عن الحداثة خاصة وأننا نستمع لأطفالنا وهم ينشدون تمجيد هذا الزعيم أو ذاك الولي، شأنها شأن الإعلانات التي تملأ شوارع بغداد دون مردود ثقافي، إضافة إلى كرنفال الرايات التي ترتفع على أسطح البيوت.. الصورة الخلفية لهذا كله، هي جزء من أوهام مسؤولين يحّدثون المجتمع العراقي بالاطمئنان عن صحة جسد مصاب بالسرطان.